من معجزات القـــرآن

تفسير الآيات الأولى من سورة الروم

للدكتور عبد الوهاب عزام بك

عميد كلية الآداب

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

لم ينزل القرآن للأخبار بانتصار الروم فقط ، بل للأخبار بأن الأمر كله لله وأنه سينصر المسلمين على ضعفهم وقلتهم في بضع سنين كما ينصر الروم . فتبشير المؤمنين بنصر الله لم يأت في الآية تبعاً كما يوحي كلام المفسرين بل كان الأخبار بانتصار الروم تمهيداً للتبشير بنصر الله المؤمنين . والاخبار بغلبة الروم وحده فيه معجزة واضحة، وبيان لصدق النبوة ولكنه مع هذا لم يكن القصد الأول من نزول الآية الكريمة .

وينبغي أن نذكر هنا أنه حينما تمت الغلبة للروم وذهب هرقل إلى بيت المقدس في أعقاب ظفر توالى من القسطنطينية إلى بيت المقدس في ذلك الحين ذهب جيش إسلامي صغير إلى البلقاء — التي تسمى اليوم شرق الأردن — فحارب جيشاً من الروم والعرب؛ وتلك الوقعة المعروفة في التاريخ الإسلامي باسم غزوة مؤتة . وقعت في السنة الثامنة من الهجرة ، وهذه الغزوة التي لم يبال بها هرقل ولعله لم يسمع بها كانت فاتحة الغزوات الإسلامية التي نزعت الشام من سلطان هرقل وجعلته يقول وقد يئس من الشام : سلام يا سورية سلاماً لا لقاء بعده . ولم يكن بين تمام الظفر لهرقل وبين تمام الهزيمة عليه في الشام وتسلط المسلمين عليها إلا بضع سنين ، فبين غزوة مؤتة وبين واقعة اليرموك ست سنوات من السنة الثامنة بعد الهجرة إلى السنة الرابعة عشرة .

لله الأمر من قبل غلبة الفرس على الروم ومن بعدها بل له الأمر قبل كل شيء وبعده لا شريك له في سلطانه . وبأمره غلب الفرس على الروم عشرين عاماً ولاء ، ثم أديل للروم في بضع سنين ثم أديل للمسلمين على الروم في بضع سنين أخرى .

— لا لا . إن كنت غلطان فقل لي ولا تخف الحقيقة عني . إنني رجل صريح . أليس هذا الواجب ؟

ويكررها : أليس هذا الواجب ؟ أليس هذا الواجب ؟ حتى تفض المشكلة بقسم غليظ ... فيصدق أنك قد آمنت بأنه ليس « بغلطان » .

وقد تكون اللازمة التي من هذا القبيل عقلية تأتي من نقص الوعي والإدراك ولا يقف بها الأمر عند حب التكرار والإعادة مع فهم الحديث المعاد .

تسأل أحدهم : هل لقيت فلاناً ؟

فإذا هو قد أعد كلمة الاستفهام في منتصف السؤال وبادرك مستفهماً : نعم ؟

— هل لقيت فلاناً ؟

— فلاناً ؟

— أي نعم فلان !

— ماله ؟ أو ما باله ؟ أو علام تسأل عنه .

ولا يبي أنك تسأله من لقائه إلا بعد السؤال الثالث أو الرابع على هذا المنوال . وهي عادة غالبة على الطبقة الجاهلة في بلاد الريف على الخصوص مرجعها بطء الحركة الذهنية وإهمال الكلام واعتباره لغواً لا يرتبط بالتفكير ولا يحمل معناه إلا مع التوكيد والترديد.

وبعض هذه اللوازم لازم في الحديث المفيد ، لأنه يعينك على تتبع الحديث والوقوف على مراحله وغاياته . كلازمة « نهايته » في موضعها الصحيح ، أو لازمة « على كل حال » أو « لا تؤاخذني » إذا كانت تهيء الذهن حقاً لسماع شيء يحتاج إلى الاستئذان أو طلب السماح . فهذه اللوازم في المحادثات أشبه بعناوين الفصول والأبواب في الكتب والمخطوطات . ولكنها قد تتوالى وتتكرر حتى تفقد معناها ولا تتعدى أن تكون حشواً بغير دلالة ... ومن قبيل ذلك فنان قدير في فنه تلازمه كلمة « ثانياً » حين يقيم الأدلة على صحة فكرة أو مذهب من المذاهب الفنية. فإذا « ثانياً » هي أولا وثانياً وثالثاً ورابعاً إلى آخر العشرة ، أو تزيد !

وكفى بمراقبة هذه اللوازم أنك تستمد منها سبباً للاصغاء إلى الأحاديث سواء منها ما استحق الإصغاء وما استحق الإعراض ... لأنك تسمع على الأقل « لوازم » تصلح للتفكهة وتصلح للدلالة على الفوارق بين « الشخصيات » والفوارق بين أساليب الألسنة وحركات العقول .

عباس محمود العقاد

على أن الله الذى له الأمر قد وضع للبشر سنناً للنصر والهزيمة من سار على سنن النصر انتصر ومن أخذ بسنن الهزيمة هزم . ليس الأمر متروكا للفوضى أو الاتفاق .

ويومئذ يفرح المؤمنون — إلى — لا يعلمون .

فى هذه الآية إخبار بأن المؤمنين سيفرحون بنصر الله حينما يغلب الروم الفرس . فهل نصر الله الذى يفرح به المؤمنون هو انتصار الروم . هذا بعيد ، وما للمؤمنين يفرحون بانتصار الروم وهم عدو لهم كسائر أمم الأرض التى كرهت هذا النور الجديد حفاظاً على تراثها من أديان وأباطيل ، ثم فى الآية : وعد الله لا يخلف الله وعده . فهل هو وعد الله المسلمين أن ينتصر الروم . لا . بعيد كل البعد أن يقال إن المسلمين يفرحون بانتصار الروم وقد وعد الله المسلمين ، انتصار الروم ، إنما الوعد لن يعود إليه الخير من الواعد ، ولم يكن للمسلمين فى انتصار الروم خير .

بين جداً أن الآية تبشر المؤمنين بنصر قد وعدوه ، وأنهم سيفرحون بهذا النصر فى السنة أو السنين التى يغلب فيها الروم فما هذا النصر ؟

رجعت من قبل أن هزيمة الروم التى اهتم بها العرب فنزلت هذه الآيات وقعت حوالى سنة ٦١٥ ، فالنصر الذى يفرح به المسلمون حين يغلب الروم فى بضع سنين من هذه الهزيمة ، هو انتصارهم يوم بدر ، وكانت وقعة بدر فى السنة الثانية فى الهجرة أى سنة ٦٢٤ من الميلاد وبين ٦١٥ ، ٦٢٤ بضع سنين .

وقد روى أن خبر انتصار الروم بلغ المسلمين وهم فى غزوة الحديبية ، وكانت الغزوة سنة ست من الهجرة ، وهذه الرواية مردودة بدليلين :

الأول أن بين الحديبية وبين هزيمة الروم فى الشام أكثر من اثنى عشر عاماً ولا يقال لهذه المدة بضع سنين .

والثانى أن الحديبية لم تكن نصراً فرح به المسلمون بل كانت صلحاً رأى فيه رسول الله صلوات الله عليه وسلامه خيراً للاسلام وكانت عاقبته خيراً ، ولكن المسلمين حزنوا له حينما وقع ورأوا فيه ذلا لهم إذ رجعوا عن مكة وقد خرجوا لدخولها والاعتمار بها.

على أن انتصار المسلمين ، وظهور الإسلام قد بدأ بالهجرة وتوالى انتشار الإسلام ، وانتصار المسلمين فى الوقائع من بعد . فجائز ألا نخص النصر الذى يفرح به المسلمون بوقعة واحدة أو حادثة معينة، بل نقول قد وافق انتصار الروم أول عهد ظفر فيه المسلمون وعز دينهم وأول انتصار للروم وقع سنة الهجرة سنة ٦٢٢ م كما أسلفت .

تضمنت الآيات خبرين عن المستقبل صادقين ، انتصار الروم وانتصار المسلمين ، وتضمنت كذلك أنهما يقعان فى وقت واحد .

« ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » ولكن مشيئته جرت على أن ينصر من يأخذ بوسائل النصر ، وفى القرآن الكريم : « ولينصرن الله من ينصره » . « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ، « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

فنصر الله لا يؤتاه من أساء عملا ، أو قعد عن التوسل إلى النصر بوسائله ، أو أخذ بأسباب الهزيمة ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تحويلا .

« وعد الله لا يخلف الله وعده » .

هذا هو الوعد الذى فى قوله : ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله وهو مطابق لوعد الله العام وسنته الدائمة أن ينصر المؤمنين ويؤيد المجاهدين ، ويمكن الصالحين ، « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات — إلى — فأولئك هم الفاسقون » . « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . « الذين إن مكناهم فى الأرض — إلى عاقبة الأمور » .

فلا يقعد أحد ويرجو ثواب الساعين ، ولا يفرط وينظر جزاء المجدين ، ولا يقصر ويبغ أجر المجاهدين ، « وأن ليس للانسان إلا ما سعى — إلى — الأوفى .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون — إلى — غافلون » .

أكثر الناس لا يعلمون سنن الله فى خلقه ، ونصره المؤمنين وتمكينه الصالحين وهم غافلون عن القوانين الإلهية ، والسنن التى يسير الخالق عليها عباده . وما قدره لأهل الخير وأهل الشر ، وأنصار الحق ، وأنصار الباطل . غافلون عن أن لله وعداً وأن وعده لا يخلف وسنته لا تبدل . عليها سارت الأمم ، وتعاقبت الدول ، وتقلبت الأمم ، وتغيرت الجماعات ، ولم تتبدل أو تتحول. أكثر الناس فى غفلة عن هذا . « لم يتفكروا فيها ولم يتعموا النظر وأخذوا الأمور بالظن ، وقاسوها بالوهم ، « وإن تطع أكثر